جدلية الأنا والآخر بين القبول والرفض
(قراءة في رواية سهرة تنكرية للموتى لغادة السمان)

The dialectic of the ego and the other between acceptance and rejection (a reading of Ghada al-Samman's novel a masquerade evening for the dead)

عبيد عائشة *

[1] جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة 1، abid.aicha@umc.edu.dz

مخبر الدراسات التراثية، جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة 1

تاريخ الاستلام: 2021/09/10 تاريخ القبول: 2021/10/22 تاريخ النشر: 2021/12/26

ملخص :

تعد مسألة الأنا والآخر مهمة في ميدان الأدب، إذ تتجلى فيها نظرة المجتمعات لبعضها من خلال الأعمال الإبداعية. وقد تكون هذه النظرة موضوعية أو مغلوطة، لذا وجب ا لاهتمام بهذه القضية. وتهدف هذه الدراسة إلى مناقشة الجدل القائم بين الأنا والآخر بالاعتماد على المنهج التحليلي، من خلال تسليط الضوء على رواية سهرة تنكرية للموتى لغادة السمان التي أعطت حلا لهذا الجدل، فكيف عالجت الروائية هذه المسألة؟ وما هو هذا الحل؟

كلمات مفتاحية: *الأنا، الآخر، الجدل، غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى.*

Abstract:

The issue of the ego and the other is important in the field of literature, in which societies view each other through creative works. This view may be objective or erroneous, so it is necessary to pay attention to this issue. This study aims to discuss the controversy between the ego and the other by relying on the analytical method, by shedding light on Ghada Al-Samman's masquerade evening novel, which gave a solution to this controversy, so how did the novelist deal with this issue? And what is this solution?

***Keywords**: The Ego, the Other, the controversy, Ghada Al-Samman, a masquerade evening for the dead.*

* المؤلف المرسل : عبيد عائشة، الإيميل : **abid.aicha@umc.edu.dz**

1. مقدمة:

يعد مصطلحي الأنا والآخر من أكثر المصطلحات تداولا في الدراسات الأدبية المعاصرة، نظرا لأهميتهما ولحساسية الموضوع الذي يعالجانه، فالجدلية القائمة بينهما والتي تحكمها صورة كل منهما عن الآخر، تستدعي المزيد من الدراسة والتدقيق فيها. ومن أهم القضايا التي نجدها في الأدب العربي هي علاقة الأنا الشرقية العربية بالآخر الغربي، نظرا لاحتكاكهما في ظروف كثيرة كالاستعمار والهجرة وغيرها. ومن بين من عالج هذه القضية غادة السمان من خلال روايتها سهرة تنكرية للموتى، التي تتحدث فيها عن الجدل القائم في نفسية الأنا تجاه الآخر، من خلال الشخصيات اللبنانية المهاجرة إلى فرنسا، وعن نفسية الآخر المتشبعة بصورة معينة عن الشرقي في خياله، وكيفية التعامل معه حين عايشته على أرض الواقع، من خلال شخصية فتاة تدعى ماري روز. وتهدف هذه الدراسة إلى معالجة جدلية الأنا والآخر ومحاولة إيجاد حل لها، بالاعتماد على المنهج التحليلي، وعن طريق الإجابة عن التساؤلات التالية: ما معنى الأنا والآخر؟ وما معنى الجدلية القائمة بينهما؟ وكيف عالجت غادة السمان هذه القضية في عملها الروائي سهرة تنكرية للموتى؟

2. مفهوم الأنا والآخر:

1.2 ماهية الأنا:

يخضع مصطلح الأنا للعديد من المفاهيم؛ فيرتبط أنا " صرفيا بضمير المتكلم المنفصل وهو بالمقابل **je** بالفرنسية و**I** بالانجليزية، ما يحيلنا إلى البحث في بعدها الفلسفي. فالأنا فلسفيا يشار إليها بالفرنسية **ego** وهو مفهوم يدل على ذات الأفعال المعتمدة، أي الأفعال التي تأخذها الشخصية بالحسبان وتتحمل مسؤوليتها"[1]، أي أن الأنا فلسفيا هي الشخصية الواعية بأفعالها والمسؤولة عنها. والحقيقة أن مصطلح الأنا صعب التحديد، ولم يتضح إلا في التحليل النفسي الذي أفرد له جزءا كبيرا من الدراسة؛ "فالأنا في علم النفس هي الذات المدركة العاقلة الواعية لتصرفات الإنسان بوصفه جسدا أو فردا ما في مجتمع، له دوافعه ورغباته وطلباته، ويتفاعل مع المحيط من حوله، والبشر عن يمينه وشماله، وفق متطلبات إنسانية الوجود الذي هو وهم فيه"[2]، فالأنا هنا لا تقتصر على شخصية الإنسان وحدها، بل على علاقتها بمجتمعها أيضا،

وكيفية انتمائها إليه وتفاعلها معه. فالأنا إذا هي تلك الصفات التي تكون شخصية الإنسان، والتي تشكل هويته ضمن مجتمعه الذي يعيش فيه، وينتمي إليه.

2.2 ماهية الآخر:

نجد مباشرة عند الحديث عن الأنا لفظ الآخر، فهما مصطلحان متلازمان "واستخدام أي منهما يستدعي تلقائيا حضور الآخر. ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقا لها تشكل كل منها، فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر"[3]، وقد ورد في لسان العرب أن " الآخر بمعنى غير، كقولك رجل آخر وثوب آخر"[4]، أي أن الآخر لغويا هو الغير المخالف للأنا.

أما عن معنى الآخر **"the other"** اصطلاحيا فيصعب " الوقوف على مفهوم محدد له، نتيجة تشعبه بين الجانب الفلسفي والنفسي والاجتماعي"[5]، غير أن ما يهمنا هو معناه في الدراسات الأدبية التي " تنطلق كلها من مبدأ الغيرية أو المغايرة"[6]، أي أنه المختلف عنا، وفي موضوعنا الآخر هو الأجنبي الغربي.

3.2 جدلية الأنا والآخر:

ورد في لسان العرب أن " الجدل؛ مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المناظرة "[7]، فهو لغويا حوار قائم على الحجج والبراهين، ولا يختلف المعنى كثيرا في الثقافة الغربية، إذ يدل "مصطلح الديالكتيك dialectique على شكل من أشكال المعرفة فهو تقنية للحوار أو فن للمناظرة، ويحمل المصطلح معاني تبادل الكلام والخطاب بين طرفين أو أكثر، وبعبارة أخرى فهو فن المنطق والبرهنة أو فن الحوار وهو المعنى الأصلي للكلمة."[8] فالجدلية بمعناها اللغوي عند الغرب نوع من الحوار المتميز بالمنطق، مع تقديم الدلائل والبراهين.

وقد " شاع عند الباحثين للتعبير عن الصراع الفكري والثقافي بين مختلف الأفكار والآراء والإيديولوجيات، فهو عبارة عن كل فكر أو رأي أو طرح أو تصور يأخذ بعين الاعتبار والاهتمام وبشكل جذري الظواهر المختلفة في مختلف تمظهراتها وتجلياتها في حقول المعرفة المتنوعة، الاجتماعية والثقافية والتاريخية"[9]، فالجدل هنا يعني معالجة المسائل التي تعاني صراعا بسبب اختلاف الآراء أو الأفكار، والجدلية هي " المنظومة الفكرية أو المنظومات التي احتوت المفاهيم الأساسية للبحث، وحاولت تقديم مختلف الرؤى والتصورات في مختلف الوضعيات، والصور

ابتداء من التقابل والتجانس، إلى الصدام والتناقض والتضاد"[10]، وإذا كان كذلك فالأنا والآخر مسألة جدلية " لا يمكن إلغاؤها أو تجاهلها، إذ إن طبيعة الحياة تقيم هذه الثنائية، وتجعل شطر كل منها شرطا لوجود الآخر وفهمه ووعيه والاعتراف به، فهما طرفان منفصلان ومتصلان، مفترقان ومتحدان، في الوقت نفسه. وتكمن أهمية دراسة الأنا والآخر في إطار الاختلاف- بالنسبة إلى الأدب والنقد- من كونها تقودنا إلى فهم طبيعة علاقة الإنسان بنفسه وبيئته ومحيطه ومجتمعه"[11]، ففهم طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر المختلف عنا قد تجد حلا للصراع بينهما، أو قد تخفف حدة العلاقة وتوضح أمورا قد تكون غامضة بالنسبة لكليهما تجاه نظيره.

ومسألة الأنا والآخر- كما سبق الذكر- من أكثر المسائل حضورا في الدراسات الفكرية المعاصرة، والعلاقة بينهما تطرح " نوعا من الديالكتيك المتعدد والمتنوع من ناحيتي الشكل والموضوع، فمن ناحية الشكل يتجاذب المسألة حقول معرفية متنوعة مما يفرض مقاربات ... تتقاطع مع ميادين فلسفية وأنتروبولوجية وإيديولوجية. كما يشكل تداول الموضوع من حيث هو تيمة ضرورة الخروج من الطرح الكلاسيكي والمعالجة السطحية التي تأسر الأنا والآخر في نمطية شكلية قاتلة، فالأنا هي الحضارة والقيم الإنسانية السامية، والآخر هو البربرية والتوحش"[12]، فعلاقة الأنا بالآخر من ناحية الشكل ترتبط بصورة كل منهما عن نظيره، وهذه الصورة تتغير بتغير ظروف كثيرة فكرية وتاريخية وغيرها، فمن يكون عدوا لك قد يكون صديقا لغيرك خاصة في حالة الحرب والسلم، كما أن الجدل بين الأنا والآخر قد حصر في أن الأنا هو الجانب الطيب والآخر هو السيء، وهذا طرح كلاسيكي قد يختلف فيكتشف كل منهما أشياء جيدة عن نظيره، فيتحول الأمر من صراع إلى تقارب حضاري، فالجدلية هنا قد توضح أمورا غامضة، أو تعالج أمورا مغلوطة.

3. الأنا والآخر في رواية سهرة تنكرية للموتى:

1.3 ملخص الرواية:

تتحدث رواية سهرة تنكرية للموتى لغادة السمان عن مجموعة من اللبنانيين المسافرين من باريس إلى بيروت لأسباب مختلفة، ترافقهم فتاة فرنسية تدعى ماري روز، نتيجة دعوة ضيافة من دانا، إحدى المسافرات ضمن الرحلة.

تبدو فكرة الرواية بسيطة وعادية عن مجموعة مغتربين عائدين لوطنهم، لكنها في الحقيقة رواية مميزة وغنية بالشخصيات والأفكار والرمزية والمقاصد، فأبطالها" سبعة لبنانيين

من شرائح اجتماعية واقتصادية متعددة ومتنوعة، يهاجرون من بيروت إلى باريس هربا من جحيم الحرب الأهلية اللبنانية، ويعيشون في باريس الأنوار الاغتراب والاستلاب، وبعد مضي ربع قرن من الزمن يعودون إلى بيروت الوطن"[13]، وكل واحد فيهم متشبع بأفكار معينة، ويريد الوصول إلى هدف معين.

يشبه أبطال هذه الرواية الفسيفساء؛ فهم عبارة عن معرض لشخصيات تحمل الكثير من الأفكار المتناقضة، والمشاعر المختلطة، والأهداف المختلفة، فهم " قلقون متأزمون مأساويون، منهم السوي والميكيافيلي، والحالم والواقعي"[14]، ومن خلال هؤلاء الأبطال سنحاول الخوض في غمار علاقة الأنا الشرقية اللبنانية بالآخر الغربي الفرنسي، فكيف صورت الرواية الأنا فيها؟ وماهي نظرة الآخر الغربي لها؟ وكيف عالجت الجدلية القائمة بينهما نتيجة اختلاف الظروف، والهوية، وأسلوب المعيشة؟

صورت غادة السمان الأنا والآخر في روايتها سهرة تنكرية للموتى، عبر مجموعة من الشخصيات. وعلى اعتبار أن الأنا هي الشرقية اللبنانية هنا – كما سبق وذكرنا-، فقد تجسدت في الشخصيات التالية:

-فواز: شاب لبناني وسيم رحل رفقة أهله إلى باريس هربا من الحرب، التي تركت في نفسه وفي مخيلته الكثير من الآثار السيئة والمشاهد البشعة، والتي ترتب عنها ذعر شديد من وطنه الأصلي، بقي معه طول حياته.و هو عائد إلى هذا الوطن المخيف لبيع البيت الذي تركه له أبوه للحصول على الأموال والعودة إلى باريس، والملاحظ عنه أنه شخص مضطرب كثير الشكوك والمخاوف، حتى أنه يتوهم خيالات مخيفة للموتى والأشباح، تقوده في النهاية إلى التراجع عن بيع البيت والعودة إلى باريس محملا بأشياء جديدة زادت من تأزمه النفسي كالحب الصعب، وصور الناس الطيبين الذين تعامل معهم أثناء رحلته.

-سليمى: سليمى هي الأم المثقفة التي ترافق ابنتها دانا إلى وطنها الأصلي، الذي لم تستطع نسيانه رغم ما حل به.

-دانا: هي ابنه سليمى التي تكره السفر إلى بيروت رفقة والدتها، وتطمح أن تقيم صفقات تجارية خلسة عنها للحصول على الأموال. كما أنها تستضيف صديقتها الفرنسية، طمعا في أن ترد لها هذه الفرنسية الضيافة في باريس، مما يتيح لها التعرف على أحد الرجال الأرستقراطيين

لتتزوجه وتندمج في المجتمع الفرنسي، وهذا ما تطمح أن تقوله لها إحدى العرافات المشهورات في بيروت.

-ماريا: كاتبة موهوبة ومشهورة، متشبعة بحب وهموم وطنها مما يضعها في قلق نفسي، حول كيفية معالجة هذا القلق، فتستنجد بكتاباتها وأبطالهم، للوصول إلى الراحة.

ناجي: لبناني من الريف هاجر إلى فرنسا بحثا عن الثروة ففشل في ذلك، ليجد نفسه نادلا في مطعم، لا يكاد راتبه يسد رمقه.

أما الآخر الغربي فقد تجلى في شخصية ماري روز، وهي الفتاة التي تلقت الدعوة من دانا للسفر إلى بيروت من أجل قضاء عطلة رأس السنة، وهي طبيبة فرنسية جميلة، متناقضة الأحاسيس، بين شوقها لزيارة بوابة الشرق –بيروت- بسحره، وبين خوفها مما سمعته عن هذه البلاد من أخبار بشعة.

كما تحتوي الرواية على شخصيات كثيرة، ساهمت في تصوير بيروت بمختلف تناقضاتها، غير أن ما يهمنا في دراستنا هي الشخصيات السابقة، التي تجلى من خلالها صراع الأنا مع نفسها، وصراع الأنا مع الآخر.

2.3 صراع الأنا والآخر في رواية سهرة تنكرية للموتى:

1.2.3صراع الأنا مع ذاتها:

تعيش الأنا في الرواية صراعا كبيرا مع ذاتها أولا ثم مع الآخر، فهي تحمل هما كبيرا، وتلامس ضياعا لامنتهيا، إثر الظروف التي فرضت عليها. ولعل الكاتبة اختارت عنوان سهرة تنكرية للموتى لعملها الأدبي هذا" لتعلن عطب الأنا وموتها العابث إثر الحرب الأهلية اللبنانية، لهذا غيبت أي ضمير أو اسم يشير إليها. إذ بدت هذه الأنا مهددة بالضياع، لهذا استعاضت عنها الكاتبة بلفظة الموتى التي جاءت في صيغة جمع الكثرة، لتوحي بكثرة هذا النموذج، الذي ظهر في بيروت بعد الحرب، لهذا لم تمنحه حياة طبيعية، بل جعلته يعيش حياة مزيفة في سهرة تنكرية"[15]، ونلمس هذا الصراع الداخلي من خلال تجليه في شخصيات الرواية كفواز الذي يتحدث عن طفولته مثلا فيقول: " لم يعد ثمة ما يربطني بتلك المدينة التي لا أريد أن أذكرها إشفاقا على نفسي من صور القصف والانفجارات والموت، وأنا صبي مسكين لا حول ولا قوة له – ومازلت-! وأرتجف ذعرا وأسد أذني بأصابعي وحولي نساء ينتحبن غارقات في السواد. لا أريد أن تتحول ذاكرتي إلى هيروشيما أو مقبرة جماعية، لكنني لا أريد أن أتذكر حتى وجوه رفاقي في

المدرسة يومئذ كفؤاد وعفيف ونبيل."[16]، هكذا كان وضعه في بيروت وهو صغير. ثم ينتقل للحديث عن وضعه المدرسي في باريس قائلا:" كدحت طوال حياتي كحمار صغير متوحد في مدارس غريبة، وشوارع باردة مكهربة مع رفاق مدرسة قساة"[17]، كل هذه الذكريات التي يصعب على أي طفل صغير تحملها، جعلت الأنا داخل فواز تعيش صراعا ذاتيا بين ذكرياته في وطنه الأصلي مع رفاقه، وبين واقع جديد وصفه بالبارد وسط رفقاء جدد لا يرحمون، و" لا تجد الكاتبة معادلا فنيا للطفل الذي يجسد الأنا في تقوقعها على ذاتها سوى صورة حيوان صغير ، يبحث في داخله عن وسائل تحميه... لهذا لم يجد فواز أمامه وهو يتجه نحو الشباب، وسيلة للدفاع عن الذات إلا بتقويتها والعمل على تميزها، وذلك بسلوك طريق العلم والتفوق في العمل، ورأى في عزلة الأنا وتقوقعها خيارا جبانا لا يليق به"[18]، فالأنا هنا تعاني صراعا مع الذكريات وخوفا متكررا منها، تحاول مواجهته بالعلم والنجاح في العمل. كما أن والدي فواز سعيا للحفاظ على هويته الأصلية إذ " عملا على إتقانه للغته العربية... وبذلك تبدو هذه اللغة وسيلة دفاع عن الشخصية العربية، إذ بفضلها تحافظ على هويتها"[19]، وعلى جزء من الأنا فيها.

ويتجلى صراع الأنا مع ذاتها بصورة واضحة أيضا في شخصية ماريا التي لم تستطع نسيان وطنها، والتي وجدت صعوبة في البعد عنه والتأقلم مع الغربة، لدرجة أنها أصبحت تتوهم وجود شخصيات خيالية تستنجد بها، بل ولم تعد تفرق بين الحقيقة والخيال، فتقول:" بعد ذلك الزمان كله لم أعد أميز بين الحقيقة والخيال، وبين أبطال قصصي والبشر الذين أتعامل معهم في اليقظة، وبين الخيال واليقظة"[20]،فشخصية ماريا شخصية حساسة تأمل الأفضل لوطنها الذي يعاني جراء ويلات الحرب، وهذا ما دفعها للهروب إلى أدبها للتعبير عن مكنونات نفسها، لدرجة أن اختلط واقعها بخيالها، وربما هذا من أشد أنواع الصراع النفسي وعذاباته فتكا. وبذلك" أسقطت غادة السمان صوتها على معاناة بطلتها، مما مكن المتلقي من أن يعايش أقسى ما يعانيه الإنسان، حين ينتقل من مكان ألفه إلى مكان غريب عنه، حيث تقهره مشاعر الخوف والقلق"[21].

وفي اكتمال الحديث عن صراع الأنا مع ذاتها أيضا نجد شخصية ناجي الذي يجسد لنا" المعاناة الداخلية لكل من يفشل في الغربة، فيعيش صراعا حادا بين البقاء فيها، والعودة إلى الوطن، يلدغه الفشل ونظرات أقاربه الهازئة، لأنه حطم صورة المغترب التقليدية، وخيب آمال

أهله بالتباهي بثروته"[22]، فنجده يفكر ويقول في حوار داخلي مع نفسه:" ثمة لحظات أتمنى فيها إعلان فشلي كمغترب والعودة إلى حضن أمي وقريتي لكنني لا أجرؤ. فالمأساة أن والدي يقدمني إلى أهل القرية على أنني ثري ولا يقول إنني غرسون في مطعم أفراح بيروت بل يدعي أنني صاحب المطعم خجلا من فشلي!"[23]،وهنا نلاحظ أن " معظم الشخصيات التي رحلت إلى باريس من أجل المال عانت الفشل، وانتهبها القلق، حتى حين عادت إلى الوطن- لبنان- لم تكن عودتها بدافع الشوق والانتماء، بل لتجد مخرجا لها من بؤس حياتها في الغربة"[24]. وهنا نلاحظ أن صراع الأنا يتجسد حين تصطدم بين هجرتها مضطرة من الوطن الأم إلى واقع جديد صعب، فتواجهه بطرق مختلفة، كتحدي فواز وكتابات ماريا، أو تستسلم لواقع لن يتغير كناجي.

هذا ما يتعلق بالأنا في صراعها مع ذاتها في الرواية، إلا أن ما يهمنا هو صراع الأنا مع الآخر، ونجد هنا نوعين من الصراع؛ صراع الأنا الشرقية مع الآخر الفرنسي في فضاء الغربة- فرنسا/باريس-، وصراع الآخر الغربي مع الأنا الشرقية في فضاء الوطن الأصلي – لبنان/بيروت-.

2.2.3صراع الأنا الشرقية مع الآخر الغربي في فضاء الغربة(باريس):

تجسدت جدلية الشرقي مع الغربي في رواية سهرة تنكرية للموتى في المواقف التي تعرضت لها العديد من الشخصيات اللبنانية في باريس، وسنجمل هذه الجدلية في النقاط التالية:

-الأنا مرفوضة ومصدر سخرية دائمة: ويتجلى هذا في موقف فواز مع زملاء الدراسة الذين كانوا يسخرون منه ومن صديقه، فنجده يتذكر قائلا:" كدحت طوال حياتي كحمار صغير متوحد في مدارس غريبة وشوارع باردة مكهربة مع رفاق مدرسة قساة، أتدفأ باللبنانيين المهاجرين مثلي كابن عازار اللطيف، وأحتمي بهم من صبيان بعضهم عدواني حتى الإيذاء مع الغرباء مثلي ومثل رفيقي ابن عازار الذي كانوا ينادونه ساخرين باسم ليزار بدلا من عزار أي سحلية أو حردون بالفرنسية!"[25]، وهنا نلاحظ أن الآخر يرفض الأنا المختلف عنه على الرغم من أنه مجرد طفل صغير، وهذا يقودنا إلى أن هؤلاء الأطفال " مرآة لأهلهم، لهذا يعاني الطفل العربي في الغربة من رفض الأطفال الفرنسيين له وسخريتهم منه، مما يعني أننا أمام مظاهر كراهية مبطنة، حتى تحول الاسم الذي يختزل الشخصية وهويتها إلى مصدر سخرية وانتقاص للأنا"[26]، وهنا نلمس توترا كبيرا بين الأنا والآخر، فعلى الرغم من أن ابن عزار مسيحي إلا أنهم عاملوه بقسوة، " فالآخر يرفض العربي أيا كان دينه لذا يسخر من المسيحي مثلما يسخر من

المسلم."[27]، والأنا هنا تبقى حائرة وحاقدة على هذا الآخر الذي لم يتقبلها وأهانها، وتبقى دائمة البحث عن وسيلة للتعايش معه أو الهروب منه، ولذا اختار فواز التعليم والنجاح لتفادي الضغوطات في وطن ليس بوطنه، لكنه فرض عليه.

-الأنا لا تستطيع أن تندمج مع الآخر: وتتمثل هذه النقطة في ناجي الذي رغم حصوله على الجنسية الفرنسية، إلا أنه لم يستطع أن يكون فرنسيا، نظرا لتشبثه بمبادئ هويته الأصلية، فنجده يقول:" لقد حملت الجنسية الفرنسية لكنني لم أنجح في أن أصير فرنسيا في أمور عديدة، أهمها نظرتي إلى الأسرة...وتعاطفت كثيرا مع زميلي النادل الجزائري المتزوج من فرنسية، الذي فقد أعصابه وقتل ابنتهما حين اكتشف أنها حامل بدون زواج، وتريد الحياة بالحرام مع صاحبها على سنة الدولة وقوانينها فيما يدعى المساكنة"[28]، فالأنا هنا لا تستطيع أن تكون هي الآخر حتى لو حملت جنسيته، وهذه الجنسية لن تستطيع أن تسهم في استقرار نفسية الأنا أوتغيير مبادئها، وربما لهذا لم يستطع ناجي النجاح في الغربة.

-الأنا تحاول أن تنتمي إلى الآخر: ويظهر هذا جليا في شخصية دانا التي تحاول أن تتزوج بفرنسي، فتكون فرنسية هي الأخرى، ولهذا قامت بدعوة ماري روز حتى ترد لها هذه الأخيرة هذا الجميل، وتكون وسيلة للوصول إلى هدفها، فهي تقول في حوار داخلي مع نفسها:" إن أمي وعدت بإهدائي مقابل الرحلة أجرة الطبيب الكبير الشهير الذي سيجري العملية التجميلية لأنفي الكبير، هذا ناهيك عن اصطحابي لماري روز كضيفة سترد لي الإجازة بدعوة إلى إجازة معها في موناكو، في البيت الصيفي لوالدها البارون المضطر لبيعه فيما بعد لحاجته إلى المال، وهذه فرصتي للتعارف هناك مع الأمير... فأنا أحلم بالزواج من كونت أو من بارون كبعض بنات المهاجرين لأصير جزءا من صلب المجتمع الباريسي، لا على هامشه كبعض الأثرياء والثريات العربيات، أي كأمي وأبي!"[29]، فالأنا هنا لا يهمها هويتها الأصلية، بل تحاول" تجاوز محنة الصراع بين هويتين –عربية وفرنسية- فتحل أزمة الأنا وقلق انتمائها لعالمين نقيضين، فتحسم أمرها بالانتماء إلى الآخر عن طريق الزواج"[30] ، والتخلي عن أصلها وهويتها.

وهنا نلاحظ أن موقف الأنا مع الآخر في الرواية يختلف حسب اختلاف الظروف والمواقف والشخصيات، فقد يكون رفضا أو اندماجا كليا، أو محاولة للتأقلم دون جدوى.

3.2.3 صراع الآخر الغربي مع الأنا الشرقية في فضاء الوطن الأصلي(بيروت):

تجلى صراع الآخر مع الأنا في شخصية الفتاة الفرنسية ماري روز، التي ذهبت لزيارة بيروت لقضاء عطلة رأس السنة، بناءا على دعوة دانا لها، وتمثلت مواقف هذه الشخصية تجاه الشرقي اللبناني، ونظرتها له في النقاط التالية:

- الشرقي اللبناني فوضوي بطبعه لكنه عزيز النفس وكريم: وهذا ما أظهره موقف ماري روز في المطار مع النادل الذي انزعج حين غير اللبنانيون ديكور الكافتيريا، فقالت له:" إنهم لبنانيون في طريقهم إلى بلدهم. كان ذلك يكفي لتفسير عربدة الفوضى والقهقهات ...سكت النادل، فالزبائن اللبنانيون هم الأكثر سخاء من حيث الإكراميات، ولم يسمع مرة بأن لبنانيا واحدا تسول أيام الحرب في فرنسا كما فعل سواهم"[31]، أي أن الشرقي رغم فوضويته فيه جانب إيجابي فيما يتعلق بكرامته وكرمه.

- الشرق مصدر كل سحر وجمال: وهو ما جعل ماري روز تتوق لزيارته قائلة" بصوت رومانسي عذب، كم أتوق للوصول إلى البلاد التي سحرت لامارتين، بلاد ألف ليلة وليلة، ولبنان بوابة الشرق الغامض"[32]، وهذا تقريبا ما يحمله الغرب كصورة –عموما- عن الشرق وجمالياته.

- الشرقي يحمل روحا فكاهية لطيفة، فنجدها تقول:" ما أطرف أولئك المدعوين باللبنانيين! لم تستطع الدكتورة ماري روز كبح جماح ضحكة مقهقهة جاءت من القلب، فحين لامس دولابا الطائرة أرض مطار بيروت فوجئت بركابها ومعظمهم من اللبنانيين وقد انخرطوا في حفل تصفيق حار لقائدها، كأنها أول طائرة في التاريخ تهبط على الأرض بسلام. لقد سافرت مرات في رحلات سياحية ولم أر شيئا كهذا إلا في بيروت"[33]، وهذه حالة استثنائية ميزت اللبنانين عن غيرهم من الأقوام، والتي أثارت دهشة الطبيبة بطريقة إيجابية.

- الشرق مصدر رعب وخوف وموت؛ فعلى الرغم من حماس ماري روز لزيارة بيروت وسحرها، إلا أنها كانت خائفة إلى حد الرعب مما سمعته عن القتل والخراب والدمار في هذا المكان، فتقول بينها وبين نفسها:" في حقيقة الأمر أتأرجح بين شوقي إلى سحر بيروت، سحر الشرق والحب والقمر والدفء والمرآة السحرية التي أرى فيها من يحب قلبي حين أشاء... وبساط الريح الذي يطير بي ومن أحب بين الكواكب والنجوم من جهة، وبين هلعي من بيروت المتوحشة الهمجية المجنونة الهاربة من غرفتها المبطنة بالبلاستيك والقطن وأربطة معطف المختلين العنيفين. بيروت الرهائن من أبناء جلدتي الذين طالعت سيرة عذاباتهم في مذكراتهم بعد إطلاق

سراحهم وعودتهم إلينا، وفظاعات خاطفيهم وقسوتهم."[34]فهذه الفتاة القادمة من الغرب تذهب إلى بيروت وهي تحمل فكرة مسبقة عن صورة للدمار والقتل، وهنا نلاحظ أن هذه الأخيرة تحمل مشاعر متناقضة، " فهي تنتمي إلى جيل لا يمكن أن يغرق في الرومانسية، فقد وصلتها عبر الإعلام أنباء الحرب اللبنانية، لذلك تنتهبها أوهام متناقضة، تنغص أحلامها بعالم سحري، لذلك تعيش مشاعر متباينة بين الانبهار والخوف معا"[35].

وتستمر مشاعر الخوف في زيارتها لبيروت، فقبل انطلاق رحلتها رأت كابوسا مليئا بالكلاب والأفاعي والجرذان[36]، وهذا يدل على مدى بشاعة الصورة التي تملأ خيال ماري روز، والتي استمدتها من الإعلام، ومن الأشخاص الفرنسيين العائدين من أهوال الحرب اللبنانية، و"يلخص هذا الحلم الصورة المرعبة التي اختزنها لاوعي المرأة الغربية للفضاء الشرقي، نتيجة هيمنة أفكار مسبقة، شكلها سوء التفاهم بين الشرق والغرب"[37] ، فالأحكام السابقة تؤثر بشكل كبير على رؤية صورة الغير.

- الشرقي الغني لا يختلف عن الغربي الفرنسي: فماري روز لم تجد فرقا بين نمط المعيشة في باريس، وبين نمط المعيشة في ضيافة عائلة صديقتها الغنية، بل وحتى وجدت في بيروت مميزات أحسن من باريس، أثارت دهشتها، فلم تصدق" أنه سيكون بوسعها الاستحمام في شاطئ جميل ودي متحضر كهذا، دافئ في الخريف على عتبة الشتاء"[38]، فجو لبنان الدافئ أثار دهشتها وإعجابها وهي المتعودة على ثلج باريس الذي يحرمها من هكذا استجمام. كما اندهشت هذه الفرنسية من النساء اللبنانيات وطريقة لباسهن، فهناك" بنت بالشورت ومعها دراجتها، وأخرى بالتشادور تتسامران. امرأة بالفراء ومكياج السهرة وحليها، وأخرى بالزي البدوي، وثالثة بالجينز المتقشف. سيدة مسنة بالميني جيب..." [39]، وهذا ما يوحي بثرائهن وحريتهن في اللباس، فهؤلاء النسوة لا يختلفن عن أي امرأة غربية، فالمرأة العربية الغنية هنا" تعيش كالمرأة الغربية بعيدا عن القيود الاجتماعية والدينية"[40]، فبيروت مكان للحرية حتى أن غادة السمان تقول في حوار ما: "بيروت ليست مدينة، إنها قارة استثنائية، إنها عاصمة شهوة الحرية"[41]. وهذا ما أثار إعجاب ودهشة ماري روز فالطبقة الغنية في بيروت لا تختلف حياتها عن طبيعة حياة الناس في باريس.

- الشرقي البسيط بدينه الإسلامي ولغته العربية، مصدر رعب للآخر: وتجلت هذه الفكرة في موقف ماري روز حين استقلت سيارة أجرة مع سائق مسلم بسيط، أزعجها في البداية بثرثرته

بلغة إنجليزية مهلهلة، لكن إحساسها بالأمان تغير حين رن هاتفه وتحدث بنبرة حادة باللغة العربية، وهذا ما نجده في العبارات التالية؛"رن الهاتف النقال للسائق، ثرثر بالعربية مع محدثه أو محدثته بلهجة عصبية وأسكت إديث بياف. مع موت الموسيقى مات مناخ الأمان والود الإنساني...شرح لها بإنجليزيته المتهلهلة المتأمركة أن عليه أن يسارع إلى بيته لنقل زوجته التي تعثرت ولادتها إلى المستشفى...قرر قلبها إنه يكذب وسيختطفني إلى زقاق كوابيسي... غابت بقايا الشمس خلف غيوم سوداء...أهذه الدروب الموحشة البائسة هي أيضا بيروت؟ هل يعقل ذلك؟ هل أنا الآن في مجاهل دنيا الإسلام التي تحدثت عنها كاتبة الرواية التي شاهدتها فيلما؟ هل أن في قلب الزلزال حيث الحياة بلا قيمة إنسانية ناهيك عن المرأة؟ أهذه بيروت الحقيقية الخفية لا بيروت الصبحيات النسائية واليخوت والمقاهي واللطف الذكوري والرهافات الشعرية؟"[42]، وهنا نلاحظ التأزم الشديد الذي عاشته نفسية هذه الفرنسية التي تحولت من معجبة ببيروت وأهلها إلى امرأة خائفة بل ومرعوبة بمجرد سماع السائق يتحدث بالعربية، وذلك بناء على أفكارها السابقة حول همجية العربي المسلم، التي ترسخت في ذهنها من الإعلام والأفلام الغربية، فقد حكمت على نفسها أنها أسيرة لهذا الرجل، وأنها ذاهبة إلى مصير مجهول، في مدينة تحولت فجأة من الرقي إلى مدينة سواد وأشباح، وهنا " يبدو الآخر ضحية جهله بالأنا الفقيرة، ومن البديهي أن يكون المرء ابن أوهامه وثوابته، التي تتشكل لديه عبر الثقافة ووسائل الإعلام والتربية. وهنا يكمن الخلل في أعماق الأنا والآخر معا، إذ حين يسيطر الخوف والكراهية على الإنسان أيا كان، فإنه نتيجة لذلك يشوه كل جميل يملكه الآخر المختلف عنه، ويغلق الباب دون الحقيقة، فيتم الاستسلام للوهم"[43]، فصورة الآخر قد ترتبط باعتقادات سابقة قد تحجب الحقيقة، وهذا ماتم ذكره سابقا.

- الشرقي ليس متوحشا إذا حاولت الانفتاح عليه: وهذا موقف مناقض للموقف السابق، فالطبيبة الفرنسية بعد خوفها الشديد اكتشفت أنها كانت مخطئة بحق السائق، وأن حكمها كان نابعا من أوهام لا أساس لها من الصحة، فبعد هروبها من السيارة- التاكسي- ووصفها للمدينة وأهلها بأبشع الأوصاف، ناداها الرجل بتهذيب، وهنا تغيرت صورة الآخر، وهذا نجده فيما يلي؛"لم تجب بل تابعت هربها راكضة وهو يلحق بها، قائلا بإنجليزيته المفككة: من حقك التفتيش عن تاكسي آخر، لكنك نسيت حقيبة نقودك سيدتي. تعالي، لاتخافي...تابع بلهجة مريرة: هل تظنيننا وحوشا يا سيدتي؟"[44]، فهنا يظهر حس المسؤولية والأمانة عند هذا الرجل

الشرقي البسيط، الذي اصطحبها رفقة أخته إلى بيته، لتكتشف صدق كلامه وتساعد زوجته على الولادة ف" نسيت د. ماري روز كل شيء عن كابوسها ومخاوفها وركضها المسعور في زقاق الهلع، وعادت إلى حقيقتها الداخلية طبيبة تسيل إنسانية لا تريد غير احترام الآخر، وإنقاذ روح أخرى مختلفة أو غير مختلفة لا فرق."[45]، وهنا تتجلى لحظة تصالح جميلة بين الأنا والآخر، توجتها رمزية اسم المولودة الجديدة ماري روز أو مريم زهرة التي سميت على اسم هذه الفتاة القادمة من الغرب، كما تتجلى جمالية الشرقي التي جهلتها الطبيبة في البداية من خلال الأطباق الشهية التي أكرمها بها هؤلاء الفقراء، ومن خلال الهدايا الثمينة التي أهدوها إياها رغم بساطة معيشتهم. وهنا نجحت غادة السمان في " تقديم الأنا الشرقية في صورة مدهشة فهي عزيزة النفس، تحاول على الرغم من فقرها رد الجميل بأثمن ما تملك، ويبرز أمامنا الترابط الأسري بأروع صورة، فقد أراد جميع أقرباء آمال تقديم كل ما يملكون للطبيبة ماري روز التي أنقذت حياة ابنتهم، لذلك أحست بأنها أقرب إلى هذا العالم الفقير الذي ينبض إنسانية... وبذلك بدا حوار الأنا مع الآخر المختلف موسعا لأفق الإنسان ، ومعلما له أشياء جديدة، فتزداد الأنا مثلما يزداد الآخر فهما للحياة، ووعيا لغناها، كما أن المعايشة اليومية لأناس مختلفي الثقافة، تنقذ المرء من وحشته"[46]، فالانفتاح على الآخر ومعايشته ربما هو الوسيلة لتخفيف حدة جدليتهما، وربما التخلص منها نهائيا.

4. خاتمة:

من خلال ما سبق توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- يعد موضوع الأنا وعلاقتها بالآخر من أهم المواضيع المطروحة في الساحة الأدبية، وترتبط علاقة كل منهما بنظيره بالصورة الراسخة في الأذهان.

- بين الأنا والآخر جدلية تخضع للاختلاف في هوية كل منهما، وهذا ما يقود إلى النفور والنزاعات في بعض الأحيان.

- الأنا الشرقية تعيش صراعا كبيرا مع ذاتها حين تجد نفسها ضائعة بين التشبث بهويتها الأصلية، والاستلاب الذي تعيشه عند الانتقال إلى محيط غريب عنها.

- الأنا الشرقية تعيش صراعا كبيرا مع الآخر في أرضه، فتقابله بالرفض أو محاولة التعايش معه، أوالاندماج فيه، أو الفشل.

- يكون الآخر الغربي صورته حول الشرقي من وسائل الإعلام الغربية والسينما، والعائدين من الحروب مما يجعله دائم الخوف منه، بل ودائم الاحتقار له في بعض الأحيان، فالشرقي هو القاتل والمتخلف والهمجي واللاإنساني.

- تعايش الأنا والآخر مع بعضهما، ومحاولة فهم كل منهما لجمالية نظيره واحترام شخصيته، قد يؤدي إلى إنهاء الجدل والصراع، والعيش بأمان واحترام، يعزز الحوار الإنساني، بدل الصراعات والحقد والحروب والنظرة الدونية التي لا طائل منها سوى زراعة الكراهية في البشرية.

- استطاعت غادة السمان من خلال رواية سهرة تنكرية للموتى وصف الأنا والآخر وعلاقتهما بدقة، كما أنها قدمت حلا معقولا لإنهاء الصراع بينهما، ألا وهو التعايش ونبذ الأحكام السابقة والعنصرية.

- يحتاج موضوع الأنا والآخر إلى المزيد من الدراسات العميقة، حتى يتسنى فهم هذه القضية الشائكة ومعالجتها، لتقريب وجهات النظر بين الشعوب المختلفة من خلال أدبها.

5. الإحالة والتهميش:

[1] سعيد عادل بهناس، الأنا والآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، جامعة زيان عاشور- الجلفة، المجلد6، العدد2، 2013، ص 313.

[2] عبد الله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر الصعاليك والمجتمع الجاهلي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 120، 2011، ص 170.

[3] عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر والتوزيع، مصر، 2005، ص 11.

[4] ابن منظور، لسان العرب، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1999، ص87.

[5] سعاد طويل، الآخر في الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، المجلد 12، العدد3، 2020، ص289.

[6] عبد الله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر الصعاليك والمجتمع الجاهلي، م س، ص 173.

[7] ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص 212.

[8] مكي سعد الله، الأنا والآخر في أدب الرحلة دراسة نقدية مقارنة، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة 1، 2016-2017، ص 20.

[9] المرجع نفسه، ص 20.

[10] المرجع نفسه، ص 21.

[11] عبد الله بن محمد طاهر تريسي، ثنائية الأنا والآخر الصعاليك والمجتمع الجاهلي،م س، ص 173.

[12] مكي سعد الله، الأنا والآخر في أدب الرحلة دراسة نقدية مقارنة، م س، ص 21.

[13] بابلو سعيدة، 2009، رواية سهرة تنكرية (غادة السمان)، تمت زيارة الموقع بتاريخ 2021/8/22، الموقع: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=188976

[14] الموقع نفسه.

[15] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013، ص 190.

[16] غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى، منشورات غادة السمان، بيروت، دت، ص 15.

[17] المرجع نفسه، ص 16.

[18] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، م س، ص192.

[19] المرجع نفسه، ص 192.

[20] غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى، ص 50.

[21] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، م س، ص 195.

[22] المرجع نفسه، ص 196.

[23] غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى، ص 45.

[24] ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، م س، ص ص 195، 196.

[25] غادة السمان، م س، ص16.

[26] ماجدة حمود، م س، ص ص 191،192.

[27] المرجع نفسه، ص 192.

[28] غادة السمان، م س، ص 44.

[29] المصدر نفسه، ص 12.

[30] ماجدة حمود، م س، ص194.

[31] غادة السمان، م س، ص، 9.

[32] المصدر نفسه، ص 13.

[33] المصدر نفسه، ص33.

[34] المصدر نفسه، ص 13.

[35] ماجدة حمود، م س، ص 197.

[36] ينظر، غادة السمان، م س، ص ص 33،34.

[37] ماجدة حمود، م س، ص199.

[38] غادة السمان، م س، ص 109.

[39] المرجع نفسه، ص 109.

[40] ماجدة حمود، م س، ص 200.

[41] رحاب ضاهر، 2005، حكايتي مع غادة السمان، تمت زيارة الموقع بتاريخ 2021/9/6، الموقع: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=46832 .

[42] غادة السمان، م س، ص ص 203، 204.

[43] ماجدة حمود، م س، ص 202.

[44] غادة السمان، م س، ص 208.

[45] المرجع نفسه، ص 210.

[46] المرجع نفسه، ص ص 207.

6. قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتاب العربي القديم:

- محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور(711ه)، لسان العرب، 1999م، ط3، تح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.

ثانيا: الكتاب العربي الحديث أو المترجم:

- عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر، دار العلوم للنشر والتوزيع مصر، 2005م.
- غادة السمان، سهرة تنكرية للموتى، منشورات غادة السمان بيروت، دت.
- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، المجلس الوني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 2013م.

ثالثا: المقالات:

- بهناس، سعيد عادل، (2013)، الأنا والآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية جامعة زيان عاشور– الجلفة، المجلد6، العدد2، ص 315–325.
- تريسي، عبد الله بن محمد طاهر، (2011)، ثنائية الأنا والآخر الصعاليك والمجتمع الجاهلي، مجلة التراث العربي إتحاد الكتاب العرب دمشق، العدد 120، ص 169– 192.
- طويل، سعاد، (2020)، الآخر في الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها جامعة الوادي، المجلد 12، العدد 3، ص 287–302.

رابعا: الأطروحات:

- مكي، سعد الله، (2016-2017)، الأنا والآخر في أدب الرحلة دراسة نقدية مقارنة، (*أطروحة دكتوراه*)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة 1، الجزائر.

خامسا: مواقع الشبكية:

- بابلو سعيدة، 2009، رواية سهرة تنكرية (غادة السمان)، تمت زيارة الموقع 2021/8/22، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=188976.

- رحاب ضاهر،2005، حكايتي مع غادة السمان، تمت زيارة الموقع 2021/9/6، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=46832